خطوات على الشلال

بقلم

في ضيافة النيل

محمود تيمور

نحن اليوم ضيوف النهر الخالد ، فقد لبينا دعوته الى شهود الآثار التي تحيط به ، وزيارة المنشآت التي تقوم عليه ، وفي مقدمتها السد العظيم .

انطلقت السيارة تطوي بنا الارض ، ووجهتها السد تلك المنشأة التي اتخذت مكان الصدارة بين الاعمال العمرانية الحديثة ، وبها يتسم العصر كله ، فانما نحيا في عصر السد لا مراء . فالرجاء الشامل لهذا الوطن الحبيب هدف له ، والنهوض بالمرافق الزراعية والصناعية على اوسع نطاق امل معلق به ، ولقد ظل ذلك العمل الجبار سرابا لامعا يساور الاعين أعواما طوالا ، وطيفا جميلا يؤنسنا في عالم الرؤى اللطاف ، والآن نغدو حقيقة ماثلة تتصاعد بخطاها الفساح على درج الخلود .

الطريق الى السد معبد مريح ، به بعض المشابه من الطريق الصحراوي بين القاهرة والاسكندرية ، وانك لتلاحظ فيه بوضوح تعمير المنطقة وتمصيرها في سرعة تبعث على الدهش . ابنية متفرقة لا حصر لها نبتت على الجانبين ، مصانع متلاحقة منها ما هو للحديد والصلب ومنها ما هو للكيميائيات ، مدن كاملة لا تكاد احداها تختفي عن الابصار حتى تطالعك مدينة اخرى ، وهي مستعمرات عظيمة للعمال والموظفين ، ولكنها مستعمرات لخير الانسان ورفاهيته وسلامه ، لا لتسخيره واستغلاله واذلاله .

واخترنا بعد ذلك بقعة صحراوية خلية ، كنا نسير فيها كأننا نشقها شقا ، فيما تتعالى تلال الحجارة حولنا ، اذ تبدو لنا المناطق التي تعد فيها المواد لبناء السد ، وهي حظائر حافلة بالآلات الضخام ، وبالناقلات والقاطرات والمقطورات من السيارات عادية رائحة في جد ونشاط .

وواجهتنا قرية شعبية عصرية توفر السكنى المريحة للمواطن الكادح ، وتتيح له أن يجد المقام الطيب ، فهنالك ساحات للرياضة ، وقاعات للسينما والاذاعة واندية للتثقيف ، واخرى للترفيه ، الى كثير من مظاهر التحضر ومرافقه .

ولم تلبث ان التقمتنا منطقة العمل الاصيل ، فاحسسنا اننا قد دخلنا جوف المعركة وانها حقا لمعركة جبارة يشنها الانسان بما أوتي من عقل ، وبما كسب من علم ، لاخضاع الطبيعة وتطويعها لكي يستكمل حضارته .

واخذنا نجوب المنطقة ، طورا صاعدين الى الروابي والشرفات ، وتارة هابطين الى الأغوار والاعماق ، وشعرنا ونحن نجول النظر فيما حولنا اننا قد اصبحنا جزءا من المعركة الدائرة ، جنودا تقوم بقسطها من المشاركة والاسهام ، ابراج متحركة ، ورافعات هائلة ، وانفاق وفجوات ، والعمال فيها كالنمل الدائب ، او لكان المنطقة كلها خلية نحل هائلة سكانها البشر ، وبيوتها جبال ، وآلات ومعدات.

مثلث وقتا أسرح الطرف يمنة ويسرة ، وأنا في دوامة طاغية . ذلك هو الجبل الاصم الصخم ، وان بطنه ليبقر ، وشرايينه تمزق ، وأوصاله تقطع ، وعاماته تتهاوى ، فيا للعمل الشامخ يحتى هامته أمام قدرة الانسان ، ويحلى مكانه لعملاق جديد يتسامق لسدى الخير والبركة للوادي الخصيب ... انه عملاق السد العظيم !

ورميت ببصري الى الليل ، فاذا الناقلات الضخمة تجوب سطحه كأنها تماسيح من حديد ، وصخام الآلات في صخب ترجم صفحته ، والاحجار تقذف في فمه ليلتهمها صاغرا معقود اللسان .

ايها النهر الخالد ! كم لك أن تعرف حقيقة نفسك ، وحقيقة من يعايشك من البشر حولك ، كنت قبلا مهبى الها ينظر اليك عابدك بعين الهيبة والرهبة ، ويقدمون اليك من فلذات الاكباد هبات وقرابين ، يستجدون بها رضاك ، حتى تجودهم من مائك ما تحيا به الارض الموات ، فاخلع عنك اليوم هذه الالوهية ، واقم بين الناس في غير تمثال ولا جبروت ، لا صلاة تعرضها ، ولا قربان تطالب بها ، وحسبك ما قضيت من اعوام مئين بل آلوف ، عارقا في احلام خرافية نسجها لك مواطنوك القدامى في عهودهم البدائية وحضاراتهم الاولى فقد تغيرت بك الحال ، واشبه الناس من عملائهم ينفضون عن عقولهم جهالة الاجيال ، ويلقون من رؤوسهم صلالة القرون ، وكشف الانسان عن نفسه نقابه ، فآمن بان الله خلقه ليكون سيد نفسه ، صانع اقداره ، لا ليكون عبدا لآلهة زائفة تسير منه اقرابين .

كل شيء يجري عليه سنن التطور ، أنت ملاك نصيبك منه رضيت أو كرهت، لقد استبدلنا بالوهتك أبوة كريمة ، فلترع حق البنوة ، ولتكن ايا دريا حكيما يدر الخير لبنيه ، وما أردنا الا ان تكون انهاء بررة أوفياء ، نحسن الانتفاع بما تعدقه علينا من فيضك العميم .

كان النهر دائما تحاكمه بمصر لك فاه ، تسلخ من مائك الغذب في سعار وجشع ما يشاء أن يتلع ، وعلى الرغم من مر الدهور الطوال مازالت احشاؤه اليك عطشى ، لاتمل منك ولا تروى ، وانت اليوم أيها النهر الخالد قادر ان تحبس ماءك ، فلا يتدفق الى البحر لذهب سدى ، مستطيع أن تعود به على تلك

الصحراوات الممتدة على جانبيك . المطلعة ابدا اليك ، لتعيث فيها الحياة والنماء والازدهار ، بعد ان لثت احقابا مديدة تأمل أن تحظى بقطرات منك ، تبل بها شفاهها المشققة الجدباء .

ما اسعدك الآن بأن تستطيع أن تمنح من هو أهل للمنح ، وان تحرم من لايثيره الحرمان !

وما اسعدني ، وانا في موقفي هذا ، بأن اشهد المكان الذي يولد فيه السد ويبنى ، ليكون فخرا مبينا لوطني العزيز .

اني ازور السد اليوم ، وهو في بطن النهر حيث يتحلق ، ارهف السمع الى نبضات قلبه ، فكأنما اسمع الى هزيم رعوده تدوي في جوانب الافق ، واشحذ شعوري نحوه ، فاحس روحه الجياشة امواجا تتصاول وتتصارع ، وفي الغد المرتقب ازوره ليستقبلني على بعد بالترحيب من هديره الدفاق

اتركه الآن عرسة لاحدة عن قرب دوحة ، تظل الوادي الامين ، وتؤتيه اطيب الثمرات .

اتركه الآن بسمة في ضمير الغد ، لاراه من بعد سرا يحلق بجناحيه في سماء النيل ، ليحمي شاطئيه ، ويحرس سكانه واهليه .

فسلاما ايها السد العظيم ، والى لقاء وشيك !

انا ماضون الساعة الى زيارة صنوك ورفيقك ، شيخنا الوقور « جزائر اسوان » ، بلقاء والشمس تتوسط كبد السماء ، وترسل باشعتها الساطعة ، لتشيع الدفء والبهجة والاشراق .

وقفنا امام ذلك الجسر الممتد على عرض النهر ، صاحب الالف قم وقم ، ومنها يتدفق الموج ثلاثات هائجة مائجة ، يزغردها الماء ، وصوتها الهادر ، وعن اليمين وعن الشمال ، تنساب بساتين فيحاء كأنها جنات عدن .

وملأني خشوع واكبار للشيخ الوقور ، كلانا من بنى وأسدة ، وان كنت اكبره بأعوام طوال . وكلانا واجه الحياة واعباءها في شجاعة وصبر ، وتقلبت به الايام بين حلو ومر ، وكان من حظنا أن ندرك العهد الحديد الذي أشرقت فيه على الوادي شمس الحرية والاستقلال كاملة الضياء ، موفورة النماء . وكلانا يشعر ، وان طال عليه الامد ، ان امامه واجبات عليه ان يضطلع بها في حاضره ، فهو يستمد من قوة العصر وعزمته جذوة النفس وشباب الروح ، ليواكب الركب الجديد في سيره الى امام .

ملت على الدليل أقول : الى أين ؟

فاجابني : ان « انس الوجود » ، او بالاحرى سعد ابريس يناديك . فهو منا على كثب . وليس في مستطاعك ان تحلو عن القمة قبل ان تؤدي للأثر العتيق شعائر الطواف .

وهبطنا الى المرسى ، فاستقبلنا مرشد صغير مهمتهم بلا شراع ، وعلى رأسه توبان مرصعان بعودتين ، فنظرت اليه كأني أنظر الى مركب من مراكب الشمس ، تحرسه روحان من أرواح الفراعنة الأقدمين — وراجعت نفسي بين أقدام واحجام ، ثم قمرت الى القارب وأنا أسلم على بركة الله ، وفي حماه أتحدث يا مركب الشمس لتبلغني معبد ايزيس !

وانساب القارب على الماء الهادئة ، وأشعة الشمس ترتعش عليها . هذه بحيرة يحترون فيها الماء خلف الخزان ، وانها لتوحي بجلال القدم ، فنحن نجورها وكأننا نقوم برحلة في عهود ما قبل التاريخ . هنالك صخور متراكم بعضها فوق بعض ، تكونت في عصور بعيدة أقصى البعد ، ولقد كانت هذه الحرر الصخرية موضع الشلال الاول ، والنهر يومئذ طليق لا يحد ما يمنعه ، فتجمع الامواج ما طاب لها الجموح على الصخور في صخب وهدير ، فاما الآن فقد استحالت البقعة بحيرة هادئة سطحها كملمس الحرير ، بعد ان كبحوا جماح النهر ، وقيدوه بسلاسل لا يملك معها الفكاك ، وعدت تلك الصخور كأنها عمالقة الزمن الغابر ، نزلت الى النهر لتستحم ، فساحت اعدادها في القاع ، وبقيت مكانها لا تريمه ، كل ما يظهر منها رؤوس سهمة صمحام !

شاهدنا قمة « أبي الوحود » يهل علينا من بعيد ، وقاربناه ودرنا حوالية ، فاذا هو شرفات يكاد الماء المشرئب يحجبها عن العيون ، ورأيت على ذراها طير « أبي فردان » في بياضه الناصع حائما يربو اليها في محاذرة ووجس . فصم الوجس والمحاذرة أيها الطائر الرشيق ؟ ان كنت من طير الفراعنة ، تبح لنفسك ان تكون من حراس دورها ومعابدها فاطمئن الينا ، نحن من أبناء هذا السلف الصالح صاحب الأمجاد ، وبانى الحضارات ، حتما تحيي مآثر أدبنا العظام ، وليست روحنا الحاضرة الا امتدادا لروحهم الغابرة . وليس ما نقوم به اليوم من عمل جديد الا استئنافا لما انشأوه من عمل تليد ، ما بالك أيها الطائر القانع لاتصدر عنك نأمة ولا حركة ؟ أتكون قد استحلت طائرا من « الالباستر » بين المتاحف ودور الآثار ؟

حدقت الى الماء استجلي ما يحجبه عن الاعين من حفايا تلك القصور العريقة ، وذهب بي الخيال كل مذهب ، وساءلت نفسي : هل عدت تلك القصور اليوم مأوى لارواح الفراعنة القدامى ؟ هل استقرت فيها أشباح الكهنة الاولين يتابعون بين اقفاصها شعائرهم الدينية تحت ستار الماء في الخفاء ؟

حينما نحل القيظ ، وينحسر الماء ، ويشيع الجفاف ، تبدو الحزيرة بأكملها فسيحة الارجاء ، زاخرة بالمعابد والقصور ، فيها ساحات وسحرات ، وفيها عمد وبوابات وفي هذه الفترة يربو « أبي الوحود » بحزيرته ، ويصبح سيدها الاوحد ، ولكأني اسمعه يقول اليك عني أيها الماء ، لقد عمرتني أشهرا طوالا ، فدعني استمتع بدفء الشمس ، وأمرر لأرى الدنيا حالي ، قبل ان يعاودني الفيضان فلا أجد الضياء والهواء الا من أعالي الاشراج !

لا عليك يا « انس الوجود » ، لا عليك أيها الصديق المظلوم ... يوشك عهد سجنك أن ينقضي ، فلن تعيش بعد اليوم شرقا بالماء تعاني الوحدة والظلام . غدى بشرى أرفعها اليك ، فانهم سيقيمون حولك سورا عظيما بدءا منك عائلة اثر عائلة ، كشأن سور الصين القديم ، سنحيا بعد اليوم في أمان من الفيضان ، ولن تغدو موطنا للخرافات والاساطير . ستكون حريرتك آهلة بالحياة والاحياء ، لا أرواح خفية تسكنك ولا أشباح تسرح في حمايك . ولكن يؤلمك الناس ليستمتعوا بما فيك من فل أصيل ، ومالك من مجد عريق .

رحمنا بالزورق من حيث اتينا ، حتى أوفينا على المرسى .
وقلت للدليل : حان موعد أوبتنا الى الصدق .
فقال لي بيـــسما : ثم نحن بعد .
ـ أبقي ما يزار ؟
ـ نعم ، المسلة الماثلة .

فرنوت اليه لحظات ، ثم قلت : اريد منا أن نوقظها ؟
فراحت الابـــسامة على شفتيه ، وقال : سنحاول أن نفعل ، ولكنها نائمة نومة اهل الكهف !

ورعق يقول لسائق السيارة الى المسلة النائمة .

وجرينا في الطريق بمقابر الربة من عهود عربية مختلفة ، ومن عجب أن السيد الدليل أكد لي أن هذه المقابر تضم من رفات أولياء الله الصالحين عددا غير قليل ، وأن على رأس القائمة « السيدة زينب » و « السيد البدوي » .

ـ ولكن للسيدة زينب قبرا في القاهرة ، وللسيد البدوي قبرا في طنطا .
ـ أوهام ياسيدي ... قبراهما هنا ... وهذا أمر لا جدال فيه .

وأبرى الـــسائق ياسر الدليل فيما يقول ، وهو يضرب عجلة القيادة فتترنح تحت قبضته ، فألفيتني أحسم النزاع بالموافقة ، خشية أن يقع من السائق في هيجته ما يعجل بنا الى اضافة أسماء جديدة ، تزدان بها القائمة المعدة من سكان البقعة الطاهرة !

وحادت بنا السيارة في طريق منعرل ، افضى بنا الى منطقة صخرية ، ثم رابطنا الـــسيارة متجهين الى شبه مخجر او منحت . وهنالك رأينا عمودا مضلعا يتمدد بصلبه على اديم الصخر ، وضلوعه الثلاث تامة النحت ، فأما الضلع الرابعة فملتحمة بالصخر الاصم . وهكذا بقي العمود في وضعه الراهن محتا من المنحت ، فلا هو مسلة كاملة ، ولا هو من صميم الجبل ، لا هو وليد مكتمل النمو ، ولا هو نطفة خلية غير مخلقة ، انه سقط جديع مارجت امه مخلطة به في احشائها .

ايتها المسلة المعدة ، ما اشقاك بما صنعت بك الاقدار ، فأنت ابدا في توثب مشبوب ، ترقبين أن يؤذن لك في الخلاص .

شبيهة ات بمتهم طالت محاكمته ، وليس هناك من حكم ، وستطلين حبيسة سجنك ، حتى يحكم الزمن فى امرك !

نامى نومة الابد .

انك مشدودة الى امك بامراس لا سبيل معها الى الفكاك .

لن تدعك هذه الأم الرءوم تفلتين .

وكم من حب وحنان يعدوان فى دنيا الأثرة والانانية اشد هولا من المحابس والاغلال .

نامى يا اختاه بسلام !